



يسعد أحياناً كي نفهم البواعث العميقه في سياسة قوه كبيرة من القوى العظمى لقضية ما ان نفحص عن التصورات في تلك القضية بين أبناء جاليتها الثقافية في أنحاء العالم. لأنه إذا وجدنا أن تصورات هذه القوة العظمى قد بقيت سنين طويلة بعيداً عن الدولة الأم ففي ذلك ما يشهد بمبلغ عمق رسوخ هذه التصورات في طرق تفكير هذه القوة من القوى العظمى.

لماذا في الحقيقة لا يساعد العالم بشار الأسد على قمع الهبة الشعبية عليه، سأل متصرف إسرائيلي روسي في الفترة الأخيرة. أوليس الحديث عن إنسان مثقف، وعن طبيب اختص في لندن. أوليس واضحًا للعالم أن السوريين لن يحظوا بزعيم أفضل منه؟.

إن هذه التساؤلات التي حظيت بعطف أصحاب الردود تهئ لنا نظراً إلى الخلفية العميقه لسياسة التأييد العنيف لروسيا لنظام الأسد القاتل.

فإلا إدارة الروسية وكثيرون في الرأي العام الروسي مثل الإداره السوفيتية في الماضي يؤمنون حقاً وبلا شك في أن نظاماً كنظماً الأسد هو أفضل ما يمكن أن يأملوا به في 'الشرق' العربي بعامة وفي سوريا وخاصة، فضلاً عن مصالح جغرافية سياسية مباشرة والالتزام بحلف طويل مع سوريا من فترة الحرب الباردة.

إن الاستكبار الاستشرافي الذي يرى أن 'الشرق' بسبب اجتماع 'الدونية' و'الوحشية' الراسختين فيه بصورة جوهرية، يحتاج لمصلحته إلى توجيهه من جهة حاكمة قوية متشددة، لم يكن وليس هو مميزاً للاتحاد السوفييتي ووريثته الرئيسية. فقد كان هذا الرأي يميز الاستعمار الغربي وما زال يميز دوائر لا يستهان بها في العالم الغربي.

لكن في الحالة السوفيتية الروسية وجدت شروط تصورية مميزة تجعل من الصعب إلى اليوم تحدي هذه الفكرة. لأن التمسك بالاستكبار الاستشرافي على الشرق الأوسط والعالم الثالث يسكن عالم المفاهيم السوفييتي مع القناعة العميقه بأن

الاتحاد السوفييتي هو القوة المعادية للاستعمار الرئيسة في العالم، وبإزاء ذلك، وبهدي من التناقضات بين الخطابة المستنيرة والأداء الظلامي للذين ميزا الامبراطورية السوفييتية، عُرض توجه القمع الاستشراقي، مثل رعاية كوادر مثقفة لتعزيز سلطة العلوين في سوريا، على أنه تأييد للتحرر الوطني المأمول للشعب السوري.

وهكذا ما يزال كثيرون في روسيا ما بعد السوفييتنية وجالياتها الثقافية في العالم على يقين بسبب استعمال طويل وعنيد لمصطلح 'التحرر' لممثل واقع القمع، من أن نظام سوريا ولا سيما حاكمها المثقف بما ذروة أشواق الشعب السوري.

والى ذلك وفي حالة روسيا فإن التصور الذي يقول أن جموع الشعب تحتاج إلى سلطة قوية متشددة لا ينحصر في توجّهها نحو سوريا بل يسوق صورة تصور الإدارة الروسية لما يناسب الشعب الروسي نفسه. إن هذه الحالات ومؤيديها غير القليلين يرون أن نظام بوتين هو بالضبط ما يريد المواطن الروسي العادي الذي يتمنى توجّهها ملائقاً.

والأبناء السيئة هي أن مقداراً كبيراً من هذا التصور لـ'مصلحة الشعب' قد استورد من الفضاء ما بعد السوفييتي إلى إسرائيل في العشرين سنة الأخيرة. أن التساؤلات عن العالم الغربي الذي لا يفهم أن الأسد جيد للسوريين تثور في الخطاب الروسي الإسرائيلي مع التساؤلات المتعلقة بما يُرى فيه انه 'مقدار مبالغ فيه' من حرية الرأي والتسامح في المجتمع الإسرائيلي. ويجوز لنا أن نقول أنه في إسرائيل الكلية مع الاتجاهات المترکزة حول العرق والدين القومي التي تقوى فيها. توجد أيضاً تعبيرات من إنتاج محلي عن الامتعاض من الطريقة الديمقراطية، لكن لا شك مهما كان من الصعب الاعتراف بذلك في أن الاتجاه إلى إضعاف القيم الديمقراطية الذي طرأ على إسرائيل في العقود الأخيرة يستمد قوته بقدر كبير من التصورات المستوردة من الاتحاد السوفييتي السابق كذلك التي تعطف على مصير الحاكم السوري.

المصدر: القدس العربي

المصادر: